

موقف "زكي نجيب محمود" من مسألة الحرية

The position of "Zaki Najeeb Mahmoud" on the issue of freedom

الدكتور: ثامر زروقي

المركز الجامعي آفلو (الجزائر) ، thamerdz2012@gmail.com

تاريخ النشر: 2024/05/16

تاريخ القبول: 2023/08/02

تاريخ الاستلام: 2023/02/06

الملخص:

تعد مشكلة الحرية من المشكلات التي خلفت وراءها تراثاً طويلاً، وعُولجت - بعمق - خلال تاريخ الفكر الإنساني، فقد ظهرت هذه المشكلة في عدة صور متباينة عبر المراحل المختلفة التي مر بها التطور الفكري للإنسان ، ويعتبر "زكي نجيب محمود" من الباحثين الذين أنشغلوا بمسألة الحرية. فمن أهم الأفكار التي ركز عليها في مرحلته الأولى كوضعي منطقي فكرة الحرية والتعقل. حيث يعتبر الحرية من أهم القيم في حياة الأفراد والشعوب، فالكل يسعى إليها ، ويقيس حياته بالنسبة إلى ما حققته منها. وهو يقسم الحرية إلى سلبية وإيجابية، والحرية السلبية تعني التحرر من القيود والأغلال، وبعد أن تتم عملية التحرر، تبدأ الحرية بالمعنى الإيجابي، وهي ربطها بالقدرة على أداء عمل معين ومعرفة كيفية عمله، وهكذا تكون الحرية مرتبطة بالمعرفة. وطالما أن الحرية قد ارتبطت بالمعرفة، كما إرتبطت بعمل العقل.

الكلمات المفتاحية: الحرية ؛ التعقل ؛ السلب ؛ الإيجاب ؛ المعرفة ؛ العمل ؛ التحرر .

Abstract

The Problem of freedom is one of the problems that left behind a long legacy, and it was dealt with - in depth - throughout the history of human thought. One of the most important ideas that he focused on in his first stage as a logical positivist was the idea of freedom and reason. Freedom is considered one of the most important values in the lives of individuals and peoples. Everyone strives for it and measures their lives in relation to what they have achieved. It divides freedom into negative and positive. Negative freedom means freedom from chains and shackles. And after the process of liberation is completed, freedom begins in the positive sense, which is linking freedom with the ability to perform a certain work and knowing how to do it, and thus freedom is linked to knowledge. And as long as freedom has been associated with knowledge, it has also been associated with the work of the mind.

Keywords : Freedom, Sanity ,Negative , Positive, Knowledge , Work , Emancipation.

المؤلف المرسل: د. ثامر زروقي، الإيميل: thamerdz2012@gmail.com

1. مقدمة:

إن مشكلة الحرية هي بدون شك من أقدم المشكلات الفلسفية وأعقدها، فقد شغلت عقول الباحثين من قديم الزمان، وما برحت تؤرق مفكري اليوم، كما أرقّت من قبل فلاسفة اليونان، فقد اكتسبت أهمية جديدة في الفلسفة المعاصرة، ويمكن أن نعدّها مفتاح المشكلات الفلسفية جميعاً، والواقع أن قضية الحرية بالذات هي أكثر المسائل الفلسفية إرتباطاً بالعلم والأخلاق وعلم الاجتماع والسياسة، وعلى الباحث في ميدان الفلسفة أن يعرض لدراسة المضمون الوجودي والأخلاقي لمفهوم الحرية، لأنه من المؤكد أن هذا المضمون لا ينفصل عن المعنى الميتافيزيقي لهذه الكلمة، كما أن هذه المشكلة هي حقيقة ميتافيزيقية لا سبيل إلى فهمها إلا في نطاق الوجود الإنساني بأكمله. وليست الحرية عندنا مجرد إشكال نظري يثيره العقل الإنساني الراغب في المعرفة، على سبيل حب الإستطلاع، حتى يعرف ما إذا كان حراً في أفعاله وأحواله أو مجبراً فيها، وإنما هي مشكلة حيوية لا تكاد تنفصل عن وجودنا نفسه، من حيث أن الوجود الإنساني إنما هو وجود حرية، تضع نفسها موضع التساؤل، فهي من المشكلات التي حظيت بإهتمام كبير من جانب " زكي نجيب محمود" طيلة حياته، فإننا لا نكاد نجد مؤلفاً من مؤلفاته إلا ويتعرض فيه لهذه المشكلة سواء بطريقة مباشرة أم بطريقة غير مباشرة، واهتمامه بها ينطوي على جانبين: أحدهما عام يتمثل في نظريته إلى الإنسان بوجه عام، أما الجانب الثاني فهو الجانب الخاص يتمثل في إهتمامه بصورة الإنسان العربي الجديد، صورة يظهر فيها حراً معتزلاً برأيه وبالطريقة التي يختارها لحياته، حتى تتحقق له الكرامة التي من شأنها أن تدفعه خطوات إلى الأمام من أجل بناء الحضارة. فإذا كانت قضية الحرية تحتل مثل هذه الأهمية في فكر " زكي نجيب محمود" فإن هذا يدعونا إلى طرح الإشكالية الآتية: ما المقصود بالحرية؟ ما معناها؟ ما هي حقيقتها عند زكي نجيب محمود؟ وماذا عساها أن تكون؟.

2. مفهوم الحرية:

1.1 لغة: كلمة الحرِّيَّة في اللغة العربية تعني الطبيعة النقية الصافية غير المختلطة بسواها، هي الأصل لا يقبل زيفاً، ويجب صونه في نقائه وصفائه، فهي الأصل الأصيل الجيد والثمين، وبالتالي يقال الحر من الذهب والفضة والنحاس أو غيرها، هو ما خلس من الإختلاط بغيره. الحر، بالضم: نقيض العبد"، والحرّة: نقيض الأمة، والجمع حرائر"، والحر من الناس هو أختيارهم وأفضالهم، وحرية العربي: أشرافهم"، والحرّة هي الكريمة من النساء" الخالصة من الشوائب، ويقصد بالحرِّيَّة أيضاً: الأرضُ اللينةُ الرمليةُ". وتحرير الرقبة عتقها وحرره أعتقه وفي الحديث من فعل كذا وكذا فله عدل محرر أي أجر معتق المحرر الذي جعل من العبيد حراً. (منظور، 1992، الصفحة 188).

فالحرية هي الخلو من الشوائب، أو الرق، اللؤم، فإذا أطلقت على الخلو من الشوائب، دلت على صفة مادية، وإذا أطلقت على الخلو من الرق، دلت على صفة اجتماعية، يقال: رجل حر أي طليق من كل قيد سياسي أو اجتماعي.

فالإنسان الحر هو غير المستعبَد، من هنا فالحرية هي مقدرة الفرد على القيام وأداء ما يريد وما يشاء دون موانع تحد من إرادته خلافا للعبد. (سمرة، 2012، الصفحة 19)، فالحرية هي إنعدام القهر والقسر والجبر والإرغام في الفعل أو هي الاختيار، والفعل الحر هو الفعل المختار عن روية وتدبر وتعقل. أما في معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي: أن " الحر نقيض العبد، حر بين الحرورية 2والحرية والحرار. والحرية من الناس: خيارهم، والحر من كل شيء أعته. (الفراهيدي، 2003، الصفحة 303). والحرية في اللغة الفرنسية: "وهي ترجمة للكلمة Liberté، وفي اللغة الإنجليزية هي Liberty، وفي اللاتينية هي ترجمة للكلمة اللاتينية. "Libertas (صليبا، ج 1982، الصفحة 461) وجاء في معجم الروس: "أن الحرية هي ضد العبودية بمعنى أنه يجب على الشخص أن يمارس حريته دون الخضوع لتقييد أو الجبر".

2.1 إصطلاحاً : إستخدم مصطلح الحرية في العالم الغربي للدلالة على رفض الأنظمة العبودية والإقطاعية في العصور الوسطى، وترسخ بعد انتصار الثورات التي ألغت الإقطاع وأقامت الأنظمة الجمهورية. عرّفها الغرب بأنها الحق في فعل أي شيء تسمح به القوانين، وأنها الانطلاق بلا قيد، والتحرر من كل ضابط، والتخلص من كل رقابة، حتى ولو كانت تلك الرقابة نابعة من ذاته هو. وعرفها أندريه لالاند (André Lalande) "1867 - 1963" بقوله: "الإنسان الحر هو ذلك الذي لا يكون عبداً أو سجيناً، والحرية هنا هي تلك الحالة التي يستطيع فيها الإنسان القيام بما يريد، وليس بما يريده له الآخرون، أي أنها تعني عدم وجود أي إكراه إرغام خارجي" (لالاند، أ، 2001، الصفحة 728).

والحرية بالمعنى العام: هي حالة الإنسان الذي لا يتحمل أي قسر، والذي يتصرف وفقاً لإرادته وطبيعته. وبالمعنى الاجتماعي: تعني المقدرة على القيام بكل ما لا يمنعه القانون، ويرفض ما يحرمه هذا القانون. وبالمعنى السيكولوجي والأخلاقي: "هي حالة ذلك الإنسان الذي لا يقدم على أي عمل، خيراً أو شراً، إلا بعد تفكير عميق، وبإدراك كلي للأسباب والدوافع التي جعلته يقوم بهذا التصرف" (خضر، 2008، الصفحة 23).

يعرفها "باروخ سبينوزا" (Spinoza Baruch) 1632-1671 : أنها الخلو من القسر فيقول: هذا الشيء يدعى حراً إذا كان يوجد وفقاً لضرورة ماهيته وحدها ويعين لذاته بذاته للفعل ويرى "جون بول سارتر" (Jean-Paul Sartre)

(Sartre) 1905-1980: "أن الإنسان ليس إنسانا إلا بحريته، فالحرية يصبح إعتبارها تعريفا للإنسان. وإننا نريد أن نجعل حريتنا هدفا نسعى إليه، لا يسعنا إلا أن نعتبر حرية الآخرين هدفا هو أيضا نسعى إليه"، (سارتر، 2003، الصفحة 177).

ويرى "جورج فيلهلم فريدريك هيغل" (Georg Wilhelm Friedrich Hegel) (1770-1831): "أن الحرية هي العنصر المكون لمفهوم الإنسان، إن الوعي بهذه الحقيقة قد عمل عبر التاريخ كخريزة مدة قرون وقرون، وحققت تلك الخريزة تغيرات عظيمة، لكن القول إن الإنسان حر بطبعه لا يعني بمقتضى كيانه الملموس بل يعني بمقتضى ما تعنيه ومفهومه." (هيغل، 1986، الصفحة 63).

أما "زكرياء إبراهيم" (1924 - 1976)، فيعتقد أن "الحرية هي الملكة الخاصة التي تميز الإنسان من حيث هو موجود عاقل يصدر في أفعاله عن إرادته هو لا إرادة أخرى غريبة عنه... فهي مشكلة الوجود الإنساني، مادام فهمنا لمعنى الحرية هو الذي يكشف لنا معنى القيم، ومعنى القلق...." (إبراهيم، 1971، الصفحة 10).

وعرفها الطاهر بن عاشور حيث قال: الحرية في الشريعة لها معنيين: المعنى الأول: ضد العبودية، وهي أن يكون تصرف الشخص العاقل في شؤونه بالأصالة، تصرفا غير متوقف على رضا أحد آخر...، ويقابل الحرية بهذا المعنى العبودية وهي أن يكون المتصرف غير قادر على التصرف أصالة إلا بإذن سيده (الزركلي، الصفحة 184).

3. فلسفة الحرية عند زكي نجيب محمود:

إن مشكلة الحرية كانت الشغل الشاغل للمفكرين العرب الذين سبقوا "زكي نجيب محمود"، فقد إهتم الإمام "محمد عبده" في أواخر حياته وكان معه "لطف السيد" و"قاسم أمين" و"الطهطاوي" و"خير الدين التونسي"... إلخ وكانت نقطة الإنقاء التي إجتمع عندها هؤلاء جميعا على إختلاف نزعتهم. ومشكلة الحرية ليست مقصورة علينا في هذا العصر، بل إنها لتنتسح حتى تكاد نعم العالم كله، وقد تنوعت أشكالها بتنوع الظروف.

فمن أهم الأفكار التي ركز عليها "زكي نجيب محمود" في مرحلته الأولى كوضعي منطقي فكرة الحرية والتعقل، وكان ذلك وهو شاب حيث يقول: "شغلتي مشكلة البحث فيما إذا كان الإنسان حرا أم مجبرا؟. منذ مطلع شبابي" (محمود، الجبر الذاتي، تر إمام عبد الفتاح إمام، 1973، الصفحة 21).

تعد فكرة الحرية فكرة أساسية لدى "زكي نجيب محمود"، فهي أحد الأسس الهامة التي تضمنها مشروعه الحضاري، وقد أخذت أبعادا كثيرة عنده وعند غيره، ففي العشرينيات من القرن العشرين شكلت وعيه بها، حيث إن معظم أدباء ومتفقي وساسة هذه المرحلة أبدعوا ليشقوا الطريق أمامها، لكن بمعاني مختلفة ("محمود، برتراند رسل، 1956،

الصفحة7) بل كان كل كاتب منهم يضرب بقلمه على الورق فيشق طريقا جديدا: حرية الشاعر في تصوير ذاته المقررة المستقلة، وكان ذلك عند "العقاد" في شعره، وحرية المواطن في إختيار حكامه، وكان ذلك عند "هيكل" وعند "علي عبد الرزاق"، كل منهما بطريقته، وحرية الناقد الأدبي في النظر إلى النصوص القديمة، وكان ذلك عند "طه حسين"، وحرية الموسيقى وتحرره من تقليد الطرب وكان ذلك عند "سيد درويش"، وحرية العقيدة بأوسع معانيها، وكان ذلك عند "سلامة موسى". لذلك قبل البحث عن الحرية لابد من السؤال التالي: ماذا تعني الحرية؟ .

كانت تعني عند "زكي نجيب محمود" في البداية المساواة بين المواطنين أي أن يكون لهم حق الشورى في أمور بلادهم، ثم جاء المستعمر البريطاني فتحول معنى الحرية عنده ليصبح تحررا من المستعمر، وقد تأثر "زكي نجيب محمود" في هذا الموضوع بالفيلسوف الإنجليزي "برتراند رسل"، حيث يقول: "مايقرب رسل" من عقلي وقلبي، هو هذا الدفاع الحار الذي ينهض به في سبيل حرية الفرد من كل طغيان: طغيان التقاليد الإجتماعية وطغيان الحكومات" (محمود، أفكار ومواقف، 1978، الصفحة59).

إن الحرية عند "زكي نجيب محمود" لا تكون إلا من قيد ، والقيد الذي كان يعنيه هنا هو قيد الجهل، فالحرية بهذا المعنى كما تصورها كانت حرية الإنسان من خلال الظروف الخارجية بما في ذلك العوامل التي شكلت حياته الماضية. وقد جاءت إمتدادات الدعوة إلى الحرية، لتتشر ضلوعها فتشمل رقعة الحياة الفكرية والذوقية" (محمود، حصاد السنين، 2005، الصفحة29)، ثم ازداد اهتماما بالحرية في فترة ما بين الحربين العالميتين حيث كانت "مصر" تعج بالمتقنين الذين طالبوا بالحرية السياسية والفكرية، ولتأثره بـ "برتراند رسل" المدافع عن حرية الفرد ، وهذا ما جعله قريبا من قلبه وعقله، حيث يوافقه في أن: "النظم الإجتماعية والسياسية كلها- في أرجاء العالم أجمع وعلى إختلاف العصور- مؤامرة كبرى يراد بها الحد من حرية الفرد التي كان ينبغي أن تكون الأساس وهي المدار لكل نظام في إجتماع وسياسة" (محمود، برتراند رسل ، 1956، الصفحة9)، فقد أخذ عنه نضاله من أجل الحرية الفردية ضد كل أشكال الطغيان : "طغيان التقاليد الإجتماعية، إذ لم تعد صالحة لحياة العصر، وطغيان الحكومات إذ لم تجعل الأولوية الأولى لمصالح الناس" (محمود، أفكار ومواقف، 1978، الصفحة17).

لهذا كانت أطروحة الدكتوراه التي تقدم بها لجامعة لندن عن الحرية تحت عنوان: "الجبر الذاتي" حيث تقول : " إن الإنسان حر لا بمعنى حرية إنعدام القانون أو الخضوع للعشوائية لكنه حر حرية منظمة تنظيما سببيا ، فالفعل الإرادي معلول وهو حر في آن معا، وهذا ما أسميه بالجبر الذاتي " (محمود، الجبر الذاتي ،ترامام عبد الفتاح إمام، 1973، الصفحة22)، وهو في ذلك الحين كما يحكي عن نفسه أنه كان معاديا لمذهب "دافيد هيوم".

4. الحرية والإنسان:

ينطلق "زكي نجيب محمود" من قناعة فلسفية تقوم على الربط بين الحرية والإنسان، فهي علامة دالة عليه، لذلك يجب أن نبحثها من خلال بيان الكيفيات التي يعبر بها عن هذه الحرية والتي بها يجسدها، وهذا لينتصل من طرحها طرحا ميتافيزيقيا، حيث يقول: "وأما السمة الثابتة لإنسان هذا العصر. فهي الإيمان لما للإنسان من حق في تقرير مصيره، فردا كان أو جماعة، وأعني بذلك الحرية في مختلف أبعادها". (محمود، أفكار ومواقف، 1978، الصفحة 121). هذا من جهة، ومن جهة أخرى يربطها بدنيا الواقع، الأمر الذي يتطلب الكشف عن العناصر التي إذا اجتمعت في سلوك الإنسان قيل هذه حرية. (محمود، حصاد السنين، 2005، الصفحة 52)

فالذي يفرق بين الإنسان وسائر المخلوقات أنه يتميز بضرب: "من الإرادة الحرة المسؤولة التي لا تخضع للقوانين الطبيعية كل الخضوع، لكنها في مقابل هذه الحرية، كان عليها أن تحمل عبء الأمانة - أمانة الحرية- في شجاعة وإقدام فهي أمانة عرضت على الجبال فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان" (محمود، تجديد الفكر العربي، 1987، الصفحة 276).

وهنا يجب التنبيه أن الإرادة التي يقصدها "زكي نجيب محمود" ضرب من الفعل بل هي الفعل، وليست قدرة معنوية مفارقة تختفي وراء عالم الواقع، لهذا رفض المشكلة المطروحة بخصوص الإرادة أي مقيدة أم حرة ؟ قائلا : "أجيبك فأقول إنني أخشى أن يوقعنا وضع المشكلة على هذه الصورة التقليدية القديمة في لاجبة لفظية لا تتفع أحدا ولا تشفع لأحد، فلكم بحث الباحثون وكتب الكاتبتون جوابا عن السؤال القائل: هل الإرادة حرة أو مقيدة ؟ ومتى تكون حرة ومتى تكون مقيدة ؟".

فهذا النص يبين أن القلق والصداع اللذين يسببهما السؤال عن الإرادة الحرة أو الحرية، مجرد محاكمة لفظية تستنزف وقت وجهد الفلاسفة، ذلك إن الإرادة لا تكون إلا في حالة واحدة، هي أن يكون النشاط مرهونا بهدف وضعه الناشط لنفسه، أو وافق عليه، وفي هذه الحالة الطبيعية السوية يمتنع السؤال هل الإرادة عندئذ حرة أو مقيدة ؟، إذن فليس التعارض الحقيقي هو بين الحرية والقيد، بل التعارض الحقيقي هو أن يكون ثمة إرادة أولا يكون، وهي لا تكون إذا لم يكن هدف أو إذا كان هنالك هذه يستهدفه غير القائم بالعمل" (محمود، في حياتنا العقلية، 1989، الصفحة 71).

ومما سبق ذكره فقد تناول "زكي نجيب محمود" الإرادة الحرة لا ينصرف إلى تأملها ميتافيزيقيا، بل يلتفت إلى معاني عملية واقعية تتجلى فيها هذه الإرادة، حيث يرى الطموح والمقاومة والرفض وقول "لا" تجسيدا لهذه الإرادة مقارنة بأشياء الطبيعة التي لا هدف لها ولا مقاومة ولا رفض لها، بل المغامرة معنى من معاني الإرادة الحرة لأن

الطبيعة لاتفعل ذلك: "هل تقول كواكب السماء في أفلاكها ماذا لو إنحرفت بطريقي هنا أو هناك؟ هل يقول مثلا ذلك النهر الدافق أو السحابة المزجة أو الريح العاصفة ؟ إن هذه كلها قد أثبت حمل الأمانة فإستراحت لكنها في الوقت نفسه لاتملك لنفسها زماما" (محمود، من زاوية فلسفية، 1993، الصفحة130).

لكن "ركي نجيب محمود" لاينساق كثيرا وراء هذا الموقف، ليقع في الدعوة للتمرد كما يفعل الوجوديون، بل يرى في الطاعة مظهرا لايتنافى مع الإرادة الحرة، لكن بشرط أن تكون تلك الطاعة مبصرة لا عمياء، والتي لا يكون فيها صاحبها "يسير سيرته ولايباح له أن يسأل من أين وإلى أين ولماذا ؟ كلا وليس في وسعه العصيان متحملا نتائج عصيانه"، (محمود، من زاوية فلسفية، 1993، الصفحة132) بل يكون: "...صاحب الطاعة المبصرة العاقلة فيعلم لماذا هو فاعل ما يفعله وفي مستطاعه أن ينحرف لو أراد، وعليه تقع تبعة إنحرافه ذاك " (محمود، من زاوية فلسفية، 1993، الصفحة133).

5. أقسام الحرية:

رغم تبني "ركي نجيب محمود" الفلسفة الوضعية كفكر، والتزامه التحليل كمنهج، إلا أنه مؤمن بالحرية. لكنه تعامل معها كمفهوم له عدة دلالات، تطورت عبر التاريخ وفي هذا يقول: " الحرية ينمو معناها مع الزمن" (النشر، 2006، الصفحة100) ، وإستعرض في عجالة هذا التطور في النص التالي قائلا: " مرت عصور لم تكن الحرية فيها تعني أكثر من الجانب المقابل للرق، فالإنسان عندئذ إما أن يكون من فئة الأحرار، وإما يكون من فئة الرقيق يشتري من الأسواق ويباع، ثم اتسع المعنى ليشمل حرية الإرادة في إختيارها للفعل، وهي حرية كان يقابلها مذهب الجبرية الذي ينفي أن تكون للإنسان القدرة على الاختيار إذ هو مجبر على أن يسير وفق ما قدر له بمشيئة إلهية، لكن "الحرية" شأنها في ذلك شأن الأفكار الكبرى أخذت تتسع في معانيها مع النمو الحضاري، فنشأت الحرية بمعناها السياسي، وبمعانيها في الأدب والفن والإقتصاد والتعليم وغير ذلك.

ثم نشأت الحرية بمعانيها الإجتماعية والعلاقة بين صاحب العمل والعامل، لكن هذه المعاني كلها لاتشمل هذا الضرب الجديد من الحرية بصورة واضحة مباشرة وأعني تلك الحرية التي يكسبها الإنسان في أي مجال يعلم الإنسان ما يعلمه وبقدر علمه في ذلك المجال تكون قدرته على تسخيره لصالحه" (محمود، حصاد السنين، 2005 ، الصفحة422). لذلك عمل على بيان معانيها وتوضيحها، بحيث أن هذه المعاني رغم أنها تختلف عن بعضها البعض إلا أنها تتكامل لتوضح ماالحرية ؟. والمبرر الذي يفسر به التطور التاريخي لمفهوم الحرية، يربطه بالمنطق لا بالتاريخ والإقتصاد، كما هو حال المدرسة الجدلية التاريخية. فالفكرة لا تدوم ولا تصمد عبر الزمن إلا إذا كانت صورية، أي خالية من المضمون المحدد لتتحرر من قيود المكان والزمان، والمواقف المعينة، حيث يقول عن ذلك:

"ولنأخذ مثالا مفهوم الحرية فبادئ ذي بدء لابد من ملاحظة أن فكرة الحرية إنمائي فكرة إطارية أو صورية، إلى حد كبير، وهي ذات مضمون معين إلى حد صغير، فمهما بحثت عن تعريف يبين حقيقة الحرية فأنت مضطر آخر الأمر إلى الوقوف عند درجة معينة من التجريد، فقد نقول مثلا إن الحرية هي فك القيود فيبقى السؤال: أي قيودا؟ وهنا ترى كيف أن الأمر قد ترك لكل موقف وظروفه ولكل عصر وقيوده" (محمود، في تحديث الثقافة العربية، 1993، الصفحة 132).

كما ركز "زكي نجيب محمود" على ضرورة التمييز بين التحرر والحرية، بإعتبار الأول مفهوما سلبيا والثاني مفهوما إيجابيا، فالتحرر كسر للقيود وإنفلات من سلطانها، أما الحرية فهي البناء والعمل، حيث يقول: " فالقيادة الفكرية غالبا ما تكون في أيدي قادة الثورات الذين كانوا هم العاملين على تحقيق ذلك "التحرر" من قيد المستعمر فاضطلعوا بعد ذلك بتحقيق الحرية بعد التحرر، والفرق بين المرحلتين هو الفرق بين السلب والإيجاب: ففي المرحلة الأولى رفعت القيود، وفي المرحلة الثانية تقام عمليات البناء، إذ لا معنى للحرية إلا أن تكون حرية الأداء والعمل" (محمود، في حياتنا العقلية، 1989، الصفحة 196).

يقسم "زكي نجيب محمود" الحرية إلى حرية سلبية وحرية إيجابية. لهذا قال بوجود معنيين للحرية واحد سلبى وآخر إيجابى وتوضيحهما كما يلي:

1.5 القسم الأول الحرية السلبية:

إن "زكي نجيب محمود" يميز بين تصور الحرية السلبى ومفهومها الإيجابى، حيث يعتبر التحرر من القيود فهما سلبيا للحرية على أن لا يفهم منى هذا أنه يحقر منه بل على العكس من ذلك يشيد به لكنه لا يجب أن نتوقف عنده، لأن هناك ما بعده ومنه قال عن الحرية: "هي في بلادنا-على أحسن الفروض- تفهم من جانبها السلبى وحده، إذ تفهم بمعنى التحرر من القيود، ومن القيود السياسية بصفة خاصة" (محمود، حصاد السنين، 2005، الصفحة 91).

لذلك فالوجه الغالب الذي تتناوله الأفلام في العالم العربى سياسى، بسبب خضوع معظم البلاد العربية للإستعمار لكن هذا السياق لوحده غير كاف لجعلها ملحة بل الذي يجعلها رأس المشاكل في العالم العربى حسب المفكر "زكي نجيب محمود" بسبب الفجوة التي ورثناها عن الحاكمين وما يحيط بهم من جاه وسلطان وهيلمان" (محمود، تجديد الفكر العربى، 1987، الصفحة 76).

كما يدخل في هذا المفهوم كل الجهود التي إستهدفت تخليص الدين مما علق به من خرافة وجهل، وهذا ما قام به العالم "محمد عبده"، حيث يقول عن ذلك: " فالحرية التي نتحقق لنا عن هذا الطريق الذي سلكه " نحمد عبده" هي في صميمها تحرر من خرافة وجهل، لو أزلنهما عن إسلامنا، ظهر هذا الإسلام بوجهه الصحيح، وهو وجه لا يتنافى مع لب الحضارة الغربية" (محمود، أفكار ومواقف، 1978 الصفحة58).

وبنفس الرؤية يعتبر مجهودات "لطفى السيد" أنها: "حرية العقل: فلا قيد على الفكر إلا ما يقتضيه منطق العقل" (محمود، أفكار ومواقف، 1978، الصفحة59). الحرية السلبية تعني التحرر من القيود والأغلال ، بعد أن تتم عملية التحرر تبدأ الحرية بالمعنى الإيجابي.

2.5 القسم الثاني الحرية الإيجابية:

إن معنى الحرية الإيجابي عند "زكي نجيب محمود" يرتبط بشيئين هما:

أولاً/ العلم: فالحرية محصلة للمعرفة بمجال ما، وقد وجد في محاوره " ليزيس" (Lysis) ل " أفلاطون" (Plato) مادة مناسبة لتمرير قناعته هذه، فـ "ليزيس" غلام لأسرة ثرية تمتلك عبداً على علم بركوب الخيل وسياستها وترويضها، ولما كان مراد الأسرة أن يتعلم الغلام ذلك، كان لابد له أن يتدرب على يد هذا العبد وهذا يتطلب أن يطيع أوامره ويسمع نصائحه ويتقيد بتعليماته، وبذلك انقلب الوضع فصار العبد هو السيد بما إمتلكه من علم: " فمن عرف كانت له السيادة" (محمود، حصاد السنين، 2005، الصفحة 112) .

ثانياً/ العمل: أي الحرية هي الفعل " المبتكر غير المتوقع وغير المسبوق بشيئه له فيما سبق من مجرى حياته" (محمود، حصاد السنين، 2005 الصفحة322)، لهذا عرف الحرية قائلًا: " الحرية في صميم معناها هي القدرة على العمل في الميدان الذي نريد أن نكون أحراراً فيه، ومعنى هذا أن الحرية مستحيلة بغير علم بتفصيلات العمل الذي تزعم لنفسك أنك حرفي مجاله" (محمود، حصاد السنين، 2005، الصفحة11)، وهذا يوافق ماتم تأكيده فيما سبق أن "زكي نجيب محمود" وظف طرح الفلسفة البراجماتية، بحيث نظر للحرية نظرة أدائية ، حتى لا يبقى مفهومها مجرد تصور نظري أو شعار أجوف بل هي عمل وسلوك، حيث: " إذا قلنا الحرية فقد وضعنا خريطة للطريقة العملية التي يسلك بها الناس بعضهم تجاه بعض فيكون لكل منهم الحق-أستغفر الله-بل يكون على كل منهم الواجب المحترم في أن يعبر عن نفسه فيفصح عن فكره في وجه الدنيا بأسرها" (محمود، حصاد السنين، 2005، الصفحة105) .

كما أن "زكي نجيب محمود" لا يقصر الحرية على الإنسان فقط بل يراها في الكون ككل، لأنها ماثلة في الكون عندما: "يسلك الكائن سلوكاً يستحيل التنبؤ به قبل وقوعه" (محمود، حصاد السنين، 2005، الصفحة107)، الأمر

إنتهى به إلى القول: "نحن إذن في كون وهب الحرية في كل رجي من أرجائه، في كل كائن من كائناته في كل ذرة من ذراته " وبذلك فالحرية مرتبطة بالوجود الإنساني لا من منظور كونه كائنا متعاليا، بل من خلال طبيعته الحيوانية وهذا لأنه يوسع دائرة الحرية لتشمل كل كائن حي، إذ يقول: "فواضح أن مجموعة أفرادها "الحديث هنا عن أسرة تتكون من الأبوين وأبنائها لاحظهم في جلسة إستجمام على سفح جبل "قد ترابطت في كيان يجمعها، لكنها في الوقت نفسه تركت لكل فرد منها أن يتفرد بإهتمام خاص، إنها "الحرية" من الداخل، الحرية التي لم تشرع لها القوانين، بل شاعتها ما ارتقى إليه البشر، إنها هي الحرية التي تعنى أن يعبر الكائن عن دخليته بسلوك ظاهر" (محمود، عن الحرية أتحدث، 1986، الصفحة15).

إن إقتناع "زكي نجيب محمود" بفكرة كون الفردية جوهر الكائن، جعله يطرح تصورا لا تتفك فيه الحرية عن الطابع الفريد للإنسان، بل هي تعبر عنه إما سلوكا أو فكريا وهذا ما تجسده اللغة، حيث لم تخف انزعاجه من الخطابات الجاهزة التي تباع في الأسواق والتي يلجأ إليها البعض لينسجوا على منوالها عندما يرسلون بعضهم بعضا، لأنها لا تتبع من الداخل ولا تعكس هذه الفردية المميزة، وهذا ما علق عليه عندما تلقى رسالة من أمه عندما كانت في بلاد "الحجاز"، لتؤدي فريضة الحج، قائلا: "فلما ذهبت إلى الحج للمرة الأولى أرسلت إلي خطابا مطبوعا يباع جاهزا، فلما عادت بسلامة الله من حجها، أبلغتها كم إنقبضت نفسي لخطاب ليس فيه شيء منها. فقالت: وماذا كنت أصنع؟ أجبته: كان خيرا لي أن ترسلي ورقة بيضاء وعليها بصمة أصبعك" (محمود، عن الحرية أتحدث، 1986 الصفحة25).

ولكي يجعل لهذه الرؤية سندا، يعتمد إلى ما توصل إليه اللغوي الأمريكي "نعوم تشومسكي"، الذي بين أن الإنسان يكتسب "نوعا خاصا في لغته، بحيث يعرف أين اللغة ما يجوز وما لا يجوز إستعماله من تراكيب لغوية" (محمود، عن الحرية أتحدث، 1986، الصفحة26)، فاللغة بطبيعتها الإبداعية كما بين "نعوم تشومسكي" يجب أن نستغلها لنظهر طبيعتنا الخاصة، ومذاقنا وتميزنا، وهنا يتحقق شرط الحرية، الذي هو إظهار الفردية والتميز.

وهذا ما يطلق عليه البعد العمودي للحرية، لأن بعدها هو الدعوة إلى كل أنواع الحرية مثل: الحرية السياسية، والإقتصادية، وحرية الحركة، بينما البعد العمودي هو الذي يتغلغل في الفرد ليلاصق باطنه، وذلك لا يكون إلا بأن: "يكون الفرد حرا من الباطن كما هو حر من الظاهر، ومعنى الحرية من الباطن أن يكون كل فرد قادرا على التفكير الناضج حرا في فكره وحرا في التعبير عن ذلك الفكر" (محمود، عن الحرية أتحدث، 1986، الصفحة149).

كما حرص "زكي نجيب محمود" في طرحه الجديد لمشكلة الحرية، حيث ينقلها من الإنسان إلى الطبيعة، لأن أسمى درجات الحرية هي: "أن يكشف بالعلم سر الطبيعة في هذا الجانب منها أو ذلك فيصيح بهذا الكشف سيدها،

بعد أن كان سجينها. لأنه كلما كشف سرا من أسرارها ،كان له بذلك القدرة على تسخيرها في المجال الذي انكشف سره" (محمود، عن الحرية أحدثت، 1986، الصفحة 54)، وهذا راجع لتأثير "فرنسيس بيكون" (Francis Bacon) الذي قرأ له كتابه "أطلنطا الجديدة"، حيث حلم "بيكون" بجزيرة تقام فيها دولة علمية بديلة للدولة السياسية حاكمها أكبر العلماء ، وقراراتها هي القوانين التي يصل إليها العلماء، وبذلك ينتقل الصراع بين البشر ليصير صراعا بينهم وبين الطبيعة" (محمود، حصاد السنين، 2005، الصفحة 73).

إن هذه اليوتوبيا لم تبق مجرد خيال ،بل عصر التكنولوجيا الذي دخله إنسان القرن العشرين ،سمح للبشر بالسيطرة على الطبيعة وهذا حقق الحرية بمعرفة قوانين الطبيعة ،لأن الحرية في هذا العصر: "هو المعنى الذي يجعلني حرا أمام ظواهر الطبيعة لكوني عرفت قوانينها . إذن لكي أظل حرا على أن أكون مبدعا للعلم لاستخراج قوانين الطبيعة" (النشار، 2006 ، الصفحة 91).

هذا ما دفع "زكي نجيب محمود" لمناقشة الحرية، ليس من حيث كونها مطلبا يخص شخصا بعينه ، بل بكونها خاصية وميزة إجتماعية تطبع مجتمعا دون غيره، فيبدأ بالتفريق بين الحرية والتحرر، كما أسلفنا سابقا ، فالمجتمعات العربية كسرت قيد المستعمر وتحررت بطرده من بلادها، لكن هذه المجتمعات لاتمتلك علما بالكون والطبيعة ولاتقنية تسخرها لصالحها مما جعلها في حاجة الى الغرب ،وبالتالي فهو صاحب اليد العليا علينا ،بل كما جاء في قوله: "إنهم هم وحدهم الأحرار وأننا مازلنا في قبضة أيديهم تحررنا أولم نتحرر على حد سواء" (محمود، في تحديث الثقافة العربية، 1993 ، الصفحة 171).

لذلك فالعلم عند "زكي نجيب محمود" شرط من شروط الحرية لأنه يزيد من الفاعلية ويبسط هيمنة الإنسان على الطبيعة ويحرره منها: "فالعلم الذي مكن الإنسان من تسخير الطبيعة لصالح ليس ترفا يتظاهر به صاحبه أمام الناس، وإنما هو آخر الأمر كفيل لحرية الإنسان إزاء الطبيعة و ظواهرها وكائناتها" (محمود، في تحديث الثقافة العربية، 1993، الصفحة 172)، ومع ذلك لم يرغب عن ذهنه الاعتراض الذي قد يعترض به البعض بكون الغرب بعلمه وتقنياته تجاهل الإنسان كذات وجعله حلقة في سلسلة الإنتاج وشيئا من أشياء العالم، يرد "زكي نجيب محمود" بأن فاعلية الإنسان الغربي أبدعت الفن الذي إعتى بهذا الجانب وبخلقه لعوالم ثقافية صانت فردية الإنسان وإنسانيته.

ومنه فالتعارض بين الحرية والقيود "القوانين" غير حقيقي ،وهذا ما ضلل الفلاسفة فأنساقوا يتلمسون الحل لمشكلة من خلق خيالهم من جهة وبسبب التنافر اللغوي بين كلمة بين كلمة حرية وكلمة قيود ،وهنا يستغل "زكي نجيب محمود" اللغة ليبهرن على زيف هذا التعارض "بين الحرية والقيود" بقوله : "خذ مثلا آخر قواعد اللغة يلتزم بها كل

كاتب أو قارئ لها ، فليس من حق الكاتب العربي أن ينصب فاعلاً أو أن يرفع مفعولاً به ، لكن هل يعني هذا حرمان الكاتب من حريته فيما يكتب وفق تلك القواعد ؟.

إن لكل كاتب موضوعاته التي يعرضها وأسلوبه الذي يعبره عن نفسه، على أن يتم ذلك كله في حدود المبادئ المشتركة. لا، بل إن كل عبارة يخطها الكاتب إنما يلتزم فيها بمبادئ كثيرة ، دون أن يحد ذلك من حريته في إختيار مادتها وطريقة صياغتها" (محمود، في حياتنا العقلية، 1989 ،الصفحة73).

6. مشكلة حرية المرأة عند زكي نجيب محمود:

عندما تناول " زكي نجيب محمود" بالبحث والدراسة موضوع المرأة وجد أن المرأة العربية الجديدة هي إنسانة أخرى، أي أنها لم تعد كالماضي من سلفاتها كبنات الحريم والجواري والغانيات، بل المرأة اليوم أصبحت طبيبة ومحامية وعالمة نفس وما إلى هناك من وظائف تدل على مدى تحمل مسؤولية المرأة لوظائفها، كما أصبحت ممثلة للشعب ووزيرة. فهل يجوز أن يعاملها الرجل كما كان يعامل سالفاتها بالأمس؟ ومن هنا تجد المرأة العربية نفسها في أزمة حادة. أيضاً من المشكلات الدخول في عصر العلم، حيث أصبحت المعرفة قابلة للقياس .

يصرح "زكي نجيب محمود" ويقرر، في حديثه عن قضايا المرأة -حريتها أو تعليمها أو مساواتها بالرجل-، أن قضايا المرأة في جوهرها قضايا إنسانية اجتماعية، بمعنى أنها قضايا لا تتفصل عن قضايا الرجل، فهي جزء جوهري في قضية الوجود الاجتماعي للإنسان. فمن حق المرأة أن تتعلم، إلى آخر حدّ تمكنها مواهبها، ومن حقها أيضاً أن تشارك في دنيا العمل بما تعلمته. يقول: "للمرأة كل الحق في أن تتعلم إلى آخر قطرة تطيقها قدراتها الفطرية"، وإذا قلنا إنها "تعلمت"، فكأننا قلنا بالتالي إن لها مكاناً في دنيا "العمل" بمقدار ما تعلمت، وبنوع ما تعلمت، لأن التعلم بكل صنوفه ودرجاته، ليس كلاماً يُلقى به في الهواء على سبيل التسلية، وإزاء الفراغ، بل التعلم في حقيقته تدريب على عمل يؤديه المتعلم.

كما أنه أشار في أبحاثه إلى "المرأة، زوجة وأمّاً لأطفال"، وهنا تنشأ المشكلة على حد قوله، فكيف توفق المرأة بين واجباتها في العمل، وواجبات الرعاية لأطفالها الصغار؛ هذه المشكلة هي التي يحتج بها من يريدون للمرأة أن تتسحب من ميادين العمل التي من أجلها تعلمت لتتحصّر في بيتها. وجهة نظره في ذلك أن يترك، لكل امرأة ، حق الاختيار لنفسها في ضوء ظروفها، فإذا اختارت أن تبقى في بيتها لتربية الطفل ، كانت حرة في اختيارها، وإذا اختارت ميدان العمل، فواجب الدولة أن تيسر لها السبل التي تكفل الرعاية للطفل، إذ لا يجوز لنا أن ننسى أن الطفل "مواطن"، له على الدولة ما لسائر المواطنين من حق الرعاية - فتتظّم له دوراً للحضانة في كل مراكز العمل أو في مواطن السكنى، معنى هذا القول، "إن المرأة إذا ما تجاذبتها واجبات العمل من ناحية، وواجبات أسرتها من

ناحية أخرى، فلها، هي وحدها، حق الاختيار لما تفعله حلاً لإشكالاتها، وذلك في ضوء ظروفها الخاصة، مستعينة بكل ما يجب على الدولة أن تعينها به من تيسيرات".

لكن المأساة حقاً -كما يقول "زكي نجيب محمود" - أن المرأة هي التي أخذت ترتاب في جدوى التعليم بالنسبة إليها، وتشك كذلك في مشروعية حقوقها الإنسانية من حيث هي مواطنة في المجتمع. وتكتمل المأساة على حد قوله "حين نرى الرجال يصفقون لها إعجاباً بضمورها وذبولها، وعودتها إلى حياة الحريم، فإذا أراد الله بإحداهن خيراً، وجعلها تصمد على الكرامة، وعلى حقها في الطموح من أجل نفسها ووطنها؛ ضاقت صدور الرجال وبكوا على خراب البيوت وضياح الأطفال".

يرى "زكي نجيب محمود"، مأساة المرأة في أنها صدّقت أن دنياها ليست هي دنيا الناس، من علم وعمل، وفن وأدب وفكر ورأى، وريادة وهداية وجهاد، صدّقت أن "المرء" و"المرأة" بينهما من التباين ما بين الروح والجسد، أو ما بين الطيران الطامح في صعوده، والقعود المكبل بأغلال الكسح، صدّقت البريئة أنها حلية يتملكها من يقتنيها، ومن حق هذا المقتنى أن يلف حليته باللفائف، وأن يحفظها في الخزائن.

يبين "زكي نجيب محمود"، الفارق الشاسع بين حياة المرأة المصرية في الماضي وحياتها اليوم، فيقول: «كانت المرأة المصرية في بارحتها تتوثب طموحاً، وكأنها أرادت أن تبلغ الأفق البعيد بقفزة واحدة. إنك لو رأيتها في الأعوام الأولى من بارحتها تلك، إذن لرأيت ما يشبه القوس المشدود إلى صدر رامبها، وقد شحنت بالتحفز، حتى إذا ما ارتخت عنها قبضة الرامي، طارت حتى نافست نسور السماء وصقورها، وبضربات منها سريعة متلاحقة، حطمت قيود الحريم، واستردت كرامتها المفقودة وإنسانيتها الضائعة... وأما في ليلتها فقد فترت العزيمة وما حسبناها تفرّت بهذه السرعة الخاطفة". ويقول أيضاً: "ما أبعد الفرق بين حياة المرأة المصرية بين الليلة والبارحة، ففي بارحتها ألقت بحجابها في مياه البحر عند شواطئ الإسكندرية"، إيذاناً بدخولها عصر النور، وأما في ليلتها هذه فباختيارها تطلب من شياطين الظلام أن ينسجوا لها حجاباً يرد عنها ضوء النهار." (محمود. في مفترق الطرق. 1985. الصفحة 139).

يرى "زكي نجيب محمود" أن الشريعة الإسلامية لا تقر الحجاب بمعنى الحبس والحجر والمهانة، لكن بمعنى التصون والعفة والاحتشام. معنى هذا أنه إذا كان مبدأ الإسلام بالنسبة للمرأة أن تأتي ملبسها على صورة الاحتشام، فيجب عليها أن تلتزم بها.

لقد طالب "زكي نجيب محمود" بتطوير زي المرأة مع المحافظة على المبدأ الذي أقره الإسلام، كما طالب أيضاً بتطوير قوانين الأحوال الشخصية مع المحافظة على المبادئ التي قررها الإسلام تجاهها. أما الإبقاء على القوانين

التي كانت تتعامل بها المرأة المسلمة القديمة، فهو نوع من الظلم، «لأن المرأة العربية الجديدة إنسانة أخرى غير امرأة الأمس، ومع ذلك فقد وجدت نفسها في مجالات العرف والتقاليد والتشريع، حبيسة أوضاع وضعت لسالفاتها من بنات "الحريم" و"الجوارى" و"الغانيات". لذا فهو يطالب بتغيير الأحكام الشرعية الخاصة بالمرأة، ويدعو العرف والتقاليد والمجتمع بأكمله أن يغيروا موقفهم من المرأة الجديدة، لتعيش حياة مطمئنة تجارى فيها عصرها، ولا تكون عقبة أمام التقدم ومواكبة روح العصر. (محمود. في مفترق الطرق. 1985. الصفحة 140).

وبناء على ما تقدم يعتبر "زكي نجيب محمود" رائد من رواد الحرية في فكرنا العربي المعاصر، فقد ظل طيلة حياته مؤمناً بها، مدافعاً عنها وجانب من دعوته إليها، تمثل في حرصه على تقديم صورة للإنسان العربي الجديد، صورة يظهر فيها حراً متعتزاً برأيه وبالطريقة التي يختارها، ومن ثم تتحقق كرامته وقداسته ويستطيع بالتالي مسايرة عصره.

لاشك أن لفظ الحرية قد استخدم بكثرة قبل "زكي نجيب محمود"، لكن دوره الأساسي يمكن في عملية التحديد والتعريف لاسيما للجانب السلبي والإيجابي لهذا اللفظ. ويمكن القول بوجه عام بأن القيام بتحديد المعاني والمفاهيم، هو أهم الهموم التي حملها "زكي نجيب محمود" طوال ما يزيد عن نصف قرن من حياته، ولاشك أنها مهمة شاقه خاصة في مجتمع إعتاد استخدام الفكرة الغامضة لمجرد أنها موجودة أو لأنها تثير وجدانه. وقد ربط الحرية بالقدرة على أداء عمل معين ومعرفة كيفية عمله وهكذا تكون الحرية مرتبطة بالمعرفة. وطالما أن الحرية قد ارتبطت بالمعرفة فقد ارتبطت بعمل العقل.

6. خاتمة:

وختاماً نستنتج مما سبق ذكره مايلي:

أولاً/ كانت الحرية عند زكي نجيب محمود تعني في البداية المساواة بين المواطنين "بحيث يكون للمواطنين حق الشورى في أمور بلادهم، ثم إذا جاء المستعمر البريطاني تحول معنى "الحرية السياسية" ليصبح تحرراً من المستعمر، وظلت هذه القضية هي الشغل الشاغل إلى أن عبت بها النفوس فتفجرت ثورة 1919، فأخذ معنى الحرية يتعمق.. وأصبحنا نتحدث عم "حرية الاقتصاد الوطني"، و"حرية المرأة" .. على أن جاءت ثورة 1952، ففتحت أبواباً واسعة لحريات اجتماعية: تحرر الفلاح من تسلط صاحب الأرض، وتحرر العامل من تحكم صاحب العمل.. الخ.

ثانياً/ إن الحرية عند "زكي نجيب محمود" من أهم القيم في حياة الأفراد والشعوب، فالكل يسعى إليها، ويقيس حياته بالنسبة إلى ما حققته منها.

ثالثاً/ يقسم "زكي نجيب محمود" الحرية إلى قسمين هما: حرية سلبية وحرية إيجابية. فالحرية السلبية تعني التحرر من القيود والأغلال، لكن بعد أن تتم عملية التحرر تبدأ الحرية، والحرية الإيجابية، تعني ربط الحرية بالقدرة على أداء عمل معين ومعرفة كيفية عمله، وهكذا تكون الحرية مرتبطة بالمعرفة، وطالما أن الحرية قد إرتبطت بالمعرفة، فقد إرتبطت بعمل العقل. حيث يقول: «إن الحرية في أكمل معانيها، هي حرية من يعلم في المجال الذي يتقنه، بعد تدريب وتمرين ودراسة وتخصص. فعندما نقول: "لايفتي ومالك في المدينة"، فهذا معناه أن مالكا هذا أكثر حرية مني في قرار يطمئن هو إليه في الفقه الإسلامي. هو خبير في هذا المجال، ويستطيع أن يختار بين أشياء مختلفة مطروحة أمامه، أما أنا فلا أستطيع لأنني لا أملك حرية الاختيار في هذا المجال. وهنا نضع أيدينا على فرق جوهري بيننا وبين الغرب، فهم يعلمون أكثر منا عن الطبيعة، إنهم متقدمون علمياً عنا بمراحل كثيرة في كافة المجالات تقريبا، فهم أكثر إمتلاكاً للمعرفة. وهم بذلك أكثر حرية في إختيار ما هو صحيح، أما نحن فلا نستطيع ولا نمتلك " ،وعندما يقول الله سبحانه وتعالى: **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ**." سورة الزمر ، الآية 9 ، فإن ذلك يعني في رأيي "زكي نجيب محمود" على الأقل، أن الذي علم هو حر فيما يعلمه وبما يعلمه. ويقدم "زكي نجيب محمود" مثالا عن ذلك : "إن الذي يركب سيارة لو تعطلت وإستطاع أن يصلحها، فسوف يستأنف السير، ولكن هب أنه لايعلم كيف يصلحها، هنا سيضطر للانتظار، حتى يأتي من يصلحها له. إذن حريته في السير بسيارته متعلقة بعلم وعمل غيره ولا تنبع من ذاته، في هذا المجال الذي نحن بصدده. وقس على ذلك كل شيء في حياتنا، لايمكن أن أكون حراً دون أن تكون لدي معلومات. فطريق الحرية يبدأ من التخلص من القيود والإنتلاق والقدرة على الحركة، الجهل يعني السجن، ومالم نتعلم فنسئل مسجونين، دون حركة ودون قدرة على الإنفلات من هذا السجن. " ، وقد قيل قديما إذا عرفت إستطعت، أي أن المعرفة تولد الإسطاعة، وفي هذا قال "فرنسيس بيكون" المعرفة سطوة أوقوة".

فقد وضع "زكي نجيب محمود" فكرة الحرية تحت مجهر التحليل لينتهي الى ان لها جانبين: جانب سلبي يركز على "التحرر" من القيود التي كبلتنا في هذا المجال او ذاك، وجانب ايجابي للحرية يتمثل في قدرة الانسان على اداء عمل ما، ولا قدرة في اي ميدان الا لمن يعرف حقيقة هذا الميدان وما يتعلق به، انها "حرية الذين يعلمون". وهكذا ربط ربطا وثيقا بين الحرية بمعناها الايجابي وقدرة الانسان على اداء عمل معين "يعرف" كيف يقوم به، فالجانب الايجابي من الحرية والمعرفة وجهان لعملة واحدة.

رابعا/ يرى "زكي نجيب محمود" أن مصطلح الحرية السياسية لم يكن متداول لدى أسلافنا ،فالحرية كانت تعني أن الفرد حر في الحقوق والواجبات، في المقابل الرقيق التي كانت تمنع هذا الحق. في حين أن الحرية السياسية في عصرنا تعني الحرية في اختيار الحكومة عبر انتخاب المواطنين. وقد رد عليه حسن حنفي بقوله: "معنى الحرية موجود في التوحيد.. في شعار "لا اله إلا الله" ثم تأكيد شمولية القيم في فعل الإيجاب "إلا الله". وهو موجود أيضاً

في العدل". كما أن "إمام عبد الفتاح إمام" يرى أن أستاذه قد خرج عن الموضوع، فهو يستخرج فكرة الحرية من مفهومي "التنوير والعدل" بمعنى أنه يقوم بتحليل الألفاظ وهي لا علاقة لها بالحرية السياسية.

خامساً/ لا بد من التمييز بين التحرر من القيود على مختلف أنواعها، وبين معنى الحرية التي هي بالضبط قدرة الإنسان على إمتلاك زمام أموره تجاه أي موقف من مواقف الحياة، إذ يتفاوت تقدير الموقف بحسب تقدير مفهوم الحرية وقيمتها الأساسية بالنسبة للإنسانية أفراداً وشعوباً.

سادساً / إن نظرة "زكي نجيب محمود" العامة إلى الكون، انعكست على إهتمامه بحرية الإنسان، فكل ما في الكون -من وجهه نظره- حر، إبتداء من الذرات الصغيرة، حتى الكون في مجموعه .

سابعاً/ يريد "زكي نجيب محمود" منا أن نعمل ونعرف ونبدع ونقرأ الكون بلغة العلم الحديث ونؤمن بالتفكير الحر ، ونواجه الصعب ونقهره ،يريد منا أن نفعل ذلك حتى نحصل على الحرية وننعم في رحابها .

ثامناً/ يؤمن "زكي نجيب محمود" " إيماناً جازماً بحرية الأفراد، ولا يريد لتلك الحرية أن تنتهك لأي سبب من الأسباب، شريطة أن نحدد للفردية معناها بحرص شديد حتى لا يساء فهمها " ،فتتال من تعاون الأفراد، وهو شرط ضروري لتحقيق الصالح العام الذي هو الفحوى النهائية. ويتخذ تحقيقه شكل حلول للمشكلات .

تاسعاً/ الحرية عند زكي نجيب محمود ليست إنعدام القانون، فالإنسان حر ليس بمعنى حرية إنعدام القانون أو الخضوع للعشوائية، لكنه حر حرية منظمة تنظيماً سببياً، فالفعلا لإرادي معلول وهو حر في آن معا.

عاشراً/ إيمان "زكي نجيب محمود" المطلق بحرية الانسان وان الجانب الايجابي لتلك الحرية هو في تحولها الى فعل ، وهو الامر الذي مارسه بنفسه في رحلته لايجاد سبيل التقدم، اذ استند الى قدرته على التحرر من الماضي ، ورؤيته التحليلية النقدية لواقعنا العربي المتخلف في الوقت الذي كان يعاين فيه عن قرب الواقع الاوروبي المتقدم .

راعه في المجتمع الغربي ما وجده من اعلاء للقيم الاخلاقية وتقديس للثوابت الانسانية واهمها الحرية - لا سيما في فترة اعقاب الحرب العالمية الثانية وهي فترة عسيرة في وصفه- مما كان له اكبر تأثير في توجيهه نحو اصول تلك الحضارة باحثاً في جنباتها عن سبيل تحقيق التقدم المنشود للمجتمع العربي . ولم يبهر " زكي نجيب محمود" في الحضارة الغربية ادواتها الجديدة ولا مظاهر حياتها المترفة انما بهره الفكر ، وهو بذلك يعلن قناعاته المطلقة ان الفكر هو دافع الحضارة ومولد بقائها ، وان تقدم العالم العربي مرهون أولاً وقبل اي شئ بإصلاح الفكر العربي.

وقدكان "زكي نجيب محمود" في حياته أكثر الناس عزوفاً عن الاختلاط بالناس، ولكنه كان أكثر الناس حرصاً على إفادة الناس، والسعي الجاد إلى تغيير فكرهم وتجديد حياتهم، بكتابات ومواقفه في مختلف القضايا الوطنية والاجتماعية.

وفي الأخير نقول لقد تصدى "زكي نجيب محمود" لمشكلة التخلف والرجعية، وكان عمله أشبه بالطبيب الذي أجرى الفحوص وقام بالتحاليل واستقصى الأعراض فعزل الداء وسمى الميكروب وأوصى بنوع العلاج الذي يستأصل الداء ويجلب العافية، كان كذلك في عمله الأكاديمي بالجامعة وفي محاضراته وفي مقالاته وفي مؤلفاته، وهو نموذج للمتفهم الملتزم بقضية الشعب والوطن المخلص في العمل بلا محاباة أو رياء فكان ، مثل "سقراط" أثينا، فيلسوفاً تتويرياً يدعو إلى رفع الوصاية عن الإنسان المصري والإنسان العربي لأنه بلغ سن الرشد ولم يعد قاصراً، بحيث يحتاج إلى غيره ليفكر نيابة عنه، ولهذا كان شعاره: "تشجع وفكر.. تشجع واعرف بنفسك ولنفسك وأعمل العقل في كل مناحي الحياة، وفي أي موضوع يطرح عليك ولا تركز إلى الكسل والجبن الشائعين عند بعض الناس، الذين يعتقدون أن في القصور راحة، وأن التفكير العقلي المستقل أمر خطير جداً، ولا تقل لنفسك أنني لست بحاجة إلى التفكير إذا كان هناك من يقوم عني بهذه المهمة الثقيلة". فالحرية إسم لا تطلقه على شيء واحد معين، إن لها عدة معاني، وهذه المعاني بمثابة وسائل، فمن أراد أن ينعم في رحاب الحرية فليجعلها موضع إهتمامه، ومن هذه المعاني العمل والإبداع والإيمان بالتفكير الذي هو فريضة إسلامية ومواجهة الصعوبات وقهرها.

7. الملاحق:

* زكي نجيب محمود مفكر وكاتب وأكاديمي وأستاذ فلسفة مصري عربي ، ولد من أبوين مصريين عرييين مسلمين، في الفاتح من شهر فيفري سنة 1905م، الموافق لـ (26 من شهر ذوالقعدة سنة 1322هـ)، بقرية ميت الخولي عبد الله مركز الزرقا بدمياط ، بأرض جمهورية مصر العربية ، بدأ حياته العلمية بالكتاب لحفظ القرآن الكريم، وبعد ذلك انتقل إلى مدرسة السلطان مصطفى في القاهرة في الخامسة عشر من عمره. وفي سن التاسعة عشر انتقلت الأسرة للعيش في السودان حيث أكمل تعليمه الابتدائي بكلية غوردون في الخرطوم. وقبل السنة الثالثة الثانوية عاد إلى القاهرة من جديد ليتم دراسته في مدرسة المعلمين العليا. تخرج زكي نجيب محمود في عام 1943م، ثم سافر بعدها إلى إنجلترا في بعثة دراسية لنيل الدكتوراه في الفلسفة. وهذا ما تم عام 1947م من جامعة لندن، تحت عنوان الجبر الذاتي. وقد مر فكره بمراحل عديدة تعبر عن تطور إهتمامات المفكر، من الناحية الفكرية، وعن تطور موقفه الفكري من قضايا العصر، ومن الإتجاهات الفكرية العامة، ويؤيدها المفاهيم التي يدعو إليه. وكانت وفاته في الثامن من سبتمبر سنة 1993، الموافق لـ (12 من شهر ربيع الأول سنة 1414 هـ). ومن أهم مؤلفاته: عن الحرية أتحدث وقشور ولباب وتجديد في الفكر العربي والمعقول اللامعقول في تراثنا الفكري وثقافتنا في مواجهة العصر ومجتمع جديد أوالكارثة رؤية إسلامية وكتاب في تحديث الثقافة العربية وقيم من التراث

وجنة العبيط وشروق من الغرب والكوميديا الأرضية وقصة نفس وأرض الأحلام وحصاد السنين والمنطق الوضعي وخرافة الميتافيزيقا ونحو فلسفة علمية وحياة الفكر في العالم الجديد وبرتراند راسل ودافيد هيوم والشرق الفنان وجابر بن حيان والجبر الذاتي وقصة عقل وقصة نفس. وقد تبنى "زكي نجيب محمود" "الوضعية المنطقية" (Logical positivism) عام 1946، عندما كان دراسافي إنجلترا ، وحين إستمع إلى محاضرة عن "الوضعية المنطقية" ألّفها المفكر "ألفرد جولز آير" (Alfred Jules Ayer)، بمناسبة تعيينه رئيسا لقسم الفلسفة (بالكلية الجامعية) في جامعة لندن، فوجد في هذه الفلسفة مايناسب إتجاهه "العلمي التجريبي". "، وقد عبر عن ذلك بقوله: "فما أن تلقيت الفكرة الأساسية في هذا الإتجاه، حتى أحسست بقوة أنني خلقت لهذه الوجهة من النظر"(محمود، قصة عقل ، 1973).

8. قائمة المصادر والمراجع:

- 1- محمود ز. ن. (1993). قصة نفس، ط4، دار الشروق، القاهرة ، مصر.
- 2- محمود ز. ن. (1987). تجديد الفكر العربي، ط5، دار الشروق، القاهرة، مصر.
- 3- محمود ز. ن. (1998). ثقافتنا في مواجهة العصر. ط1، دار الشروق، القاهرة، مصر.
- 4- محمود ز. ن. (1989). في حياتنا العقلية. ط3، دار الشروق، القاهرة، مصر.
- 5- محمود ز. ن. (1978). أفكار ومواقف. ط1، دار الشروق، القاهرة، مصر.
- 6- محمود ز. ن. (1973). الجبر الذاتي، تترامام عبد الفتاح إمام . دط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، مصر.
- 7- محمود ز. ن. (1956). برتراند رسل. ط1، دار الشروق، القاهرة، مصر.
- 8- محمود ز. ن. (2005). حصاد السنين. ط1، دار الشروق، القاهرة، مصر.
- 9- محمود ز. ن. (1986). عن الحرية أتحديث. ط2، دار الشروق، القاهرة، مصر.
- 10- محمود ز. ن. (1993). في تحديث الثقافة العربية. ط2، دار الشروق، القاهرة، مصر.
- 11- محمود ز. ن. (1973). قصة عقل . ط1، دار الشروق، بيروت ، لبنان.
- 12- محمود ز. ن. (1993). من زاوية فلسفية. ط1، دار الشروق، القاهرة، مصر.
- 13- محمود ز. ن. (1985). في مفترق الطرق. ط1. دار الشروق، القاهرة ، مصر.
- 14- إبراهيم ز، (1971)، مشكلة الحرية ، دط، مكتبة مصر، القاهرة ، مصر.
- 15- النشار، م (2011). زكي نجيب محمود، ط1، دار المسيرة للنشر والطباعة، عمان، الأردن.

- 16- اليسوعي، ر. ك. (1997). أعلام الأدب العربي المعاصر، ج2 ، ط2، بيروت، لبنان.
- 17- خضر، خ. (2008). مدخل إلى الحريات العامة وحقوق الإنسان. ط3، المؤسسة الحديثة للكتاب، بيروت، لبنان.
- 18- سارتر. (2003). الوجودية مذهب إنساني، ط1، تر كمال الحاج، دار الطليعة، بيروت ، لبنان.
- 19- سمرة، م. أ. (2012). مفهوم الحريات، ط1، دار الراية للنشر والتوزيع عمان، الأردن.
- 20- عاطف، ا. (2002). زكي نجيب محمود مفكرًا عربيًا ورائدًا للتأجاء العلمي التثويري. ط1، دار الوفاء
- للطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر.
- 21- كامب، ا. ر. (1997). أعلام الأدب العربي المعاصر، ج2، ط1، الشركة المتحدة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر.
- 22- هيجل. (1986). محاضرات في تاريخ الفلسفة. ط1، تر خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ، لبنان .
- 23- ابن منظور. (1992). لسان العرب. ج4، ط3، دار صادر، بيروت، لبنان.
- 24- صليبا ، جميل. (1982). المعجم الفلسفي ، جز 1 ، ط1، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، لبنان.
- 25- الفراهيدي، خليل بن أحمد. (2003). كتاب العين ، تحقيق هنداوي عبد الحميد ، جز1، ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان .
- 26- لالاند ، أندريه. (2001). موسوعة الالاند الفلسفية، المجلد 1، ط2، تعريب خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، باريس، فرنسا .
- 27- خليل، ا. خ. (1997). التراث، القيم، الدين عند زكي نجيب محمود . المجلة الفلسفية العربية. مج5. د.ع، القاهرة، مصر.